جامعة المنصورة
كليـة الآداب

انفعالات الخطيب النفسية
قراءة في خطابة العصر الأموي

إعـــداد
دكتور/ عبد الرحمن رجا الله السلمي
أستاذ بقسم اللغة العربية
جامعة الملك عبدالعزيز- المملكة العربيو السعودية

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصـورة
العدد الواحد و الستون – أغسطس ٢٠١٧

انفعالات الخطيب النفسية

قراءة في خطابة العصر الأموي

د/ عبد الرحمن رجا الله السلمي

ملخص البحث:

للخَطابة أسلوبُها الذي يختلف عن أسلوب الفنون النثرية الأخرى، فهي تستلزم إثارَة المشاعر، والْإهابَ الحمـــاس، واســـتعمالَ العبـــارات العاطفية مِن لَدُن الخطيب، وباتجاه مَن يخاطبهم.

وبما أنَّ الخطيب يُخاطب طبقاتٍ مختلفة، وعقليات متفاوتة، لهم مشاعرُ متباينة، وفي ظروف وأحوال مختلفة؛ فوَجَب عليه أن تكون انفعالاتُه ومشاعره متسمة بعدد من المقاييس النقدية يأتي في مقدمتها الصدق والقوة والثبات، كما يلزم التناسب بين اللغة المستعملة ونوع العاطفة من حب أو كره، أو غضب أو سرور، أو نحو ذلك وهذا ما حاولت هذه الورقة إلقاء الضوء عليه.

توطئة:

تَتَفَاوَتُ النُّصُوصُ الخطابية فـــي الإجـــادة والإبداع بقدر ما يكون فيها من الصدق العاطفي والفني اللـــذين يســـجلان أدقَّ مشـــاعر الحيـــاة وأعمقها، فمن خلال هذا العنصر تتحقق إثـــارة الوجدان، وبعث المشاعر فـــي الســـامعين ممـــا يكسبها البقاء والخلود. والخطابـــة علـــى وجـــه الخصوص تهدف إلى «الإقناع والتأثير؛ لتنقـــل السامع من موقف إلى آخر، ومن عقيـــدة إلـــى أخرى، باعثةً فيه نزعةً للعمـــل الإيجـــابي...، فغايتها الكبرى هي أن تحول الأفكـــار الذهنيـــة الجامدة إلى عواطف ينفعل بها السامع.» (١)

ومن هنا فالمضمون الخطابـــي لا بد أن يتخـــذ السمة الوجدانية التي تمثل جوهره في التـــأثير، وإثارة المتلقين؛ ذلك أن الوجدان «هـــو محـــور الحياة الخلقية، وهو ... مبعث آلامنـــا، ومنبـــع مسرَّاتنا وأحزانِنـــا، وعليـــه ترتكـــز روابطنـــا الاجتماعية والصلات النفسية.»(٢)

وإذا كانت العاطفة الوجدانية هي «روح العمـــل الأدبي، أو هي التي تجعل العمـــل أدبـــاً، فهـــي بانفعالاتها المختلفة من حبٍ، وكراهيةٍ، وتفاؤلٍ، وتشاؤمٍ، وغضبٍ، ورضاً...، تجعل للعمل قيمةً وتأثيراً على مشاعر المتلقي؛ فهي بالنسبة للعمل الأدبي كالعصارة الحية بالنسبة للشجرة، خافيـــةً عن الأنظار، ولكن لا حياة للشـــجرة بـــدونها؛ فبدونها تتقصف الجذور، ويجف الساق، وتـــذبل الأوراق.» (٣)

والتأثير الوجدانِي أو ما يعرف بالعاطفـــة هـــو: «الحالة التي يتشبع بها نفس الأديب أو الشـــاعر

---

(١) فن الخطابة وتطوره عند العرب-الحاوي، ٨.

(٢) في النقد الأدبي-عبـــد العزيـــز عتيـــق، ١٠٦، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ-١٩٧٢م.

(٣) أدب الخلفاء الراشدين-جـــابر قميحـــة، ٤٣٩، دار الكتب الإسلامية.

بموضوع أو فكرة أو مشاهدة، وتؤثر فيه تأثيراً قوياً يدفعه إلى التعبير عن مشاعره والإعـراب عما يجول بخلده.» (٤) وعلى إثر قوتهـا يتـأثر المتلقي، ويتفاعل مع ما يلقى عليه.

ومعايير التأثير الوجداني التي يتحقق بها نجـاح الخطيب وتأثيره فـي الآخرين متعددةٌ، منها:

أولا: الصدق.

ويراد **بصدق العاطفة**: «أن تنبعث عـن سـببٍ صحيحٍ غير زائفٍ، ولا مصطنعٍ.»(٥) فإن كـان الباعث تافهاً أو مزيفاً «كان الأدب سطحياً لا أثر له.» (٦)

ولا شك أن معرفة البواعـث المثيـرة للخطبـة تقودنا إلى الحكم على عاطفة الخطيـب بأنهـا صادقة أو كاذبة. فَجُلُّ خطب خلفاء بنـي أميـة وأمرائهم تنبعث من مثير حقيقي، وتجعل المتلقي يشعر أن هذه الخطبة قطعة من نفس صـاحبها، وأنها نابعة من القلب.

ومن أمثلة ذلك خطبة عتبة بـن أبـي سـفيان بمصر، حين بلغه عن أهلها أمور كرهها، فصعد المنبر، ثم قال: «**يا حاملي ألأم أنفٍ رُكِّبتْ بَيْـنَ أَعينٍ، إنِّـي إنَّما قلَّمتُ أظفَارِي عـنكم ليلـينَ مَسِّي لَكم، وَسَألتُكم صَلاَحَكم إذْ كَـانَ فَسَـادُكم بَاقياً عَلَيكم، فَأَمَّا إذْ أَبَيـتُم إلا الطَّعْـنَ عَلَـى السلطانِ، وَالتَّنَقُّصَ للسَّلَفِ، فَوَاللهِ لَأُقَطِّعَنَّ بُطُونَ السِّيَاطِ عَلَى ظُهُورِكم، فَإِن حَسَمْتُ أَدوَاءَكم وَإلاَّ فَإنَّ السيفَ مِن وَرَائِكم، فَكَم مِن حِكمةٍ منَّا لَـم تَعِيهَا قُلُوبُكم، وَمِن مَوعِظَةٍ مِنَّا صَـمّتْ عَنْهَـا آذَانُكم، وَلَسْتُ أَبْخَل عَلَيكُم بِالعُقُوبَـةِ إذَا جُـدتُم بِالْمَعصِيَةِ، وَلاَ أُويسُكُم مِن مُرَاجَعَةِ الحُسنى إنْ صِرتُم إِلَى التَّي هِيَ أَبَرُّ وَأَتْقَى**».(٧)

ويظهر من خلال النص أن نفس الخطيب تتأجج بالعواطف المشـبوبة، وتلتهـب بالإحساسـات المعبرة التي نلحظها من خلال كلماته وتراكيبه، وسيطرة عاطفة الغضب عليه، نلمس ذلك مـن خلال بداية الخطبة بوصفه المخاطبين بصـفات اللؤم في قوله: «**يا حاملي ألأمِ أنفٍ رُكِّبتْ بَيْـنَ أَعينٍ**»، ثم إمعان السخط عليهم بقولـه: «**إنَّمـا قلَّمتُ أظفَارِي عنكم لِيَلِينَ مَسِّي لَكم**» مما يـدل على أنه أراد تمزيقهم لولا رجاءُ صلاحهم.

ثم فـي تمثيل العقوبة التي سينـزلها برعيتـه مما يزيد فـي إثارة العواطف وتعميقها، وكـل ذلك يشعر المتلقي أن الخطبة صادرة عن موجدة في نفس الخطيب.

ولما اشتدت شوكة الخوارج بـالعراق، وطـال توثبهم بالولاة أهمَّ ذلك عبد الملك بن مـروان، فجمع الناس ثم خطبهم، فقال: «**أَيُّهَا النَّـاسُ! إنَّ**

(٤) دراسات في النقد الأدبي–محمد عبد المنعم خفاجي، ٤١.

(٥) المصدر السابق، ١٩٠.

(٦) المصدر السابق، ١٩١.

(٧) الكامل في اللغة والأدب، ٣٦١/٤.

العِرَاقَ قَد تَكَدَّرَ مَاؤُهَا، وَظَهَرَ جَدْبُهَا، وَمَلُحَ عَذْبُهَا، وَبَدَا وَمِيضُهَا، وَاشْتَدَّ ضِرَامُهَا، وَكَثُرَ وَقُودُهَا...، وَهَؤُلاءِ الأَزَارِقَةُ الطُّغَاةُ الْمَارِقَةُ قَد اشْتَدَّتْ شَوكَتُهُم، وَتَفَرَّقَتْ جُرثُومَتُهم، حَتَّى قَد حَذِرَهُم الصِّغَارُ، وَلَيسَ يَقُومُ لَهُم الكِبَارُ، فَمَن يَنتَدِبْ لَهُم مِنكُم بِسَيفٍ قَاطِعٍ، وَسِنَانٍ لاَمِعٍ، وَقَلْبٍ جَامِعٍ، فَيُخْمِدَ نِيْرَانَهُم...؟!». (٨)

والمتأمل في هذا النص يلمس أن عاطفة الخطيب جاءت متقدة نابعة من استشعار دوره ومسؤوليته في الحفاظ على أمن الرعية، وحمايتها من الأخطار. والعاطفة هنا نابعة عن سبب صحيح؛ ولهذا اتسمت بالصدق، مما أكسبها عمقاً وتأثيراً في النفوس.

وقد بدا أثر العاطفة في الأسلوب، حيث تسابقت الألفاظ الجزلة، والجمل القصيرة المتوازية سريعة الإيقاع إلى ذهن الخطيب، فاختار منها ما يستدعيه المعنى، وتمليه العاطفة وتؤكده.

ولا شك أن الخطيب حين «يعمد إلى التأثير السريع فإن الجمل القصار أنسب؛ لأنها سريعة الأداء، سريعة الفهم، متلاحقة الأثر، مثلها مثل الطَّرَقات المتوالية على الحديد المُحْمى، تؤثر فيه وتشكله.» (٩)

ولعل في المثالين السابقين ما يقدم دليلاً واضحاً على أثر الانفعال الذاتي للخطيب هذا الانفعال الذي يشكل دافعاً داخلياً يسهم في إخراج النص الخطابي في صورة عاطفية مؤثرة، فالمثير الخارجي يجعل الخطيب الملهم يتعرض لـ«حالات نفسية صرفة يصحبها ويتبعها مباشرة تغيرات فسيولوجية ضرورية للحالة النفسية.» (١٠)

يؤكد ذلك ما أورده الجاحظ أن معاوية رضي الله عنه قال لصحار العبدي : مَا هَذَا الكَلاَمُ الذِي يَظْهَرُ مِنكُم؟ **فقال:** «شَيْءٌ تَجِيشُ بِه صُدُورُنا فَتَقْذِفُه عَلَى أَلْسِنَتِنَا.» (١١)

هذا الإحساس الذي وصفه العبدي هو ما يمكن أن نعبِّر عنه بالانفعال، أو التوتر الذي يؤدي دوراً مهماً في تكوين شخصية الخطيب و«يدفعه للإبداع الذي ينشط بنشاط المشاعر والانفعالات المتوترة.» (١٢)

وما لقيه خلفاء بني أمية وأمراؤهم من المعارضة السياسية، والفتن الداخلية، وكثرة الحروب كان

(٨) الفتوح–ابن أعثم، ٤٢٤/٣.

(٩) فن الخطابة–الحوفي، ١٧٦.

(١٠) أسس الصحة النفسية–عبد العزيز القوصي، ٣٩، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة، عام ١٩٦٩م.

(١١) البيان والتبيين، ٩٦/١.

(١٢) الإبداع والتوتر–سلوى سامي المر، ٦٧، رسالة دكتوراه، مخطوط رقم ١٩٧١، دار العلوم، القاهرة.

كفيلاً بإثارة الانفعـالات الذاتيـة التـي تحفِّـز المشاعر، وتدفع الخطيب للإبداع.

ثانيا: القوة.

لعل من أبرز سمات التأثير الوجداني عند خطباء العصر الأموي اتسامها بالقوة، وهذه القوة «من أهم المقاييس النقدية إن لم تكن أهمها جميعاً.»(١٣) وقوة الأثر الوجداني تنبع من نفـس الخطيـب وطبيعته، «فيجب أن يكون قوي الشعور، عميق العاطفة؛ ليستطيع بث ذلك في أسلوبه، ثـم فـي نفوس قرائه، وإلا فلن ينتظـر منـا تـأثيراً ولا مطاوعة لما يزعم ويصطنع، وهذا هو سر القوة، ومنبع العظمة الأدبية.» (١٤)

والمتأمل فـي خطب خلفاء بني أمية وأمـرائهم يجد الأثر الوجداني يتجلى قويـا ملتهبـا يثيـر مشاعر السامعين فيجعلهم يتجاوبون مع الخطاب، وينساقون نحو مضمونه.

تأمل خطبة زياد ابن أبيـه «**البتـراء**» تجـدها جاءت قوية العاطفة، مشوبة بالألفاظ المثيرة التي تضاعف من تأثيره في مستمعيه. فأول ما بدأ به قوله: «**إنَّ الْجَهَالَةَ الْجَهْلَاءَ، وَالضَّلَالَةَ العَمْيَـاءَ، وَالغَيَّ الْمُوْفِيَ بِأَهْلِـه عَلَـى النَّـارِ، مَـا فِيـه سُفَهَاؤُكُم، وَيَشْتَمِلُ عَلَيه حُلَمَاؤُكُم.**» (١٥)

هذه البداية بالجملة الاسمية، وتأكيـدها بـاللام والإضافة تدل على نفس موتورة خانقـة تنبـئ السامع بالقسوة الممعنة في الشدة.

ثم يمضي في مغالاته فيقسـم لهـم بمضـاعفة العقوبة، وأخـذ الصـحيح بالسـقيم، والمطيـع بالعاصي، والمقبل بالمدبر، فـي صـيغٍ مليئـةٍ بالتهديد والوعيد والمبالغة؛ لأنها صـادرة عـن خطيب منفعل، حار الشعور، تلتهـب كلماتـه، فتصبح سياطاً مؤلمة. وبهذا الأسلوب «يسـكب في عباراته قوةً وحرارةً؛ لأن الحياة تسري فـي العبارة على مقدار غناهـا بالمشـاعر الحيـة، والعواطف المشبوبة والصور الذهنية». (١٦)

ونجد العواطف المتأجِّجة في مواقف الحـروب، والحثِّ على الجهاد تسيطر على خطبهم، وتبعث الحماس في نفوسهم وتمدهم بقوة نفسية تعيـنهم على بذل الجهد، والمصابرة، وهذا ما نحسه في خطبة طارق بن زياد لما حشد الجيش لحـرب الأسبان حيث خطب جنده، فقال: «**أَيُّهَـا النَّاسُ! أَينَ الْمَفَرُّ؟ البَحرُ مِن وَرَائِكُم، وَالعَدُوُّ أَمَـامَكُم، وَلَيسَ لَكُم وَاللهِ إلا الصِّدقُ والصَّبرُ. وَاعلَمُـوا أَنَّكُم فِـي هَذِه الْجَزِيرَةِ أَضيَعُ مِن الأَيتَـامِ فِـي مَأدُبَةِ اللِّئَامِ، وَقَد اسْـتَقْبَلَكُم عَـدُوُّكم بِجَيشِـه**

(١٣) أصول النقد الأدبي–أحمد الشايب، ١٩٣.

(١٤) المصدر السابق، ١٩٥.

(١٥) البيان والتبيين، ٦٢/٢.

(١٦) فـنُّ الخطابة في المنظـور النقـدي–الحديـدي،

وأَسْلِحَتِه، وَأَقْوَاتُه مَوفُورَةٌ، وَأَنــتُم لاَ وَزَرَ (١٧) **لَكــم إلاَّ سُــيُوفُكُم، وَلاَ أَقــوَاتَ لَكُــم إلاَّ مَــا تَستَخْلِصُونَه مِن أَيدِي عَدُوِّكُم...، وَإِنِّـــي لَــم أُحَذِّرْكُم أمرًا أَنَا عَنهُ بِنَجْوَةٍ، وَلاَ حَمَلْتُكم عَلَــى خُطَّةٍ أَرْخَصُ مَتَاعٍ فِيهَا النُّفُوسُ إلاَّ وَأَنَــا أَبــدَأُ بِنَفْسِي، وَاعْلَمُوا أَنَّكُم إنْ صَبَرتُم عَلَى الأَشَــقِّ قَلِيلاً استَمْتَعْتُم بِالأَرْفَهِ الأَلَذِّ طَوِيلاً، فَلاَ تَرْغَبُــوا بِأَنفُسِكم عَنْ نَفْسِي، فَمَا حَظُّكُم فيْه بِأَوفَى مِــنْ حَظِّيْ.»** (١٨)

وقد اعتمد الخطيب علــى الأســلوب الإنشــائي للتأثير في جنــده مــن خــلال صــيغ النــداء، والاستفهام في قوله: «**أيها الناس! أين المفرُّ؟**»، وتيئيس الجند من الطمع في العودة فالبحر مــن ورائهم، والعدو أمامهم. وكذلك إيــراد الصــور المثيرة للخيال، كقوله: «**إنَّكُم فِي هَذِه الْجَزِيــرَةِ أَضيَعُ مِن الأَيتَامِ فِي مَأْدُبَةِ اللِّئَامِ**». كلُّ ذلك من أجل أن يستنهض الهمم، ويذكي روح الحمــاس للجهاد في سبيل الله، فالباعث على هذه الخطبــة الرغبةُ الصادقة في نصرة ديــن الله، وإعــلاء كلمته.

ولن يعدو المتأمل لهذه الخطبة أن يستشعر صدق عاطفة الخطيب من خلال عباراتــه، وحــرارة ألفاظه النابعة من مشاعره الحية النابضة بصدق إيمانه برسالته التــي يدعو إليها بفعله قبل قوله. ومثل هذه العاطفة الصادقة نلمسها فــي جميــع خطبهم التي تحــث علــى الجهــاد، وترغِّــب المجاهدين في القتال؛ فجميعها ثرية بخصــائص الخطابة الحربية من ناحية الخيال والاســتمالة. وفيها حفز للهمم والعزائم بوسائل كثيرة، وتبشير بالنصر والعزة، وكل ذلك جاء بعاطفــة قويــة وملتهبة؛ لأنها صادرة عن سبب صحيح.

و**خطب الرثاء** من أقوى الخطب عاطفةً، وأكثرها شجواً؛ لأنها تصدر عن قلوب محترقة، ونفوس سيطر عليها الحزن ولوعة الفراق.

وهذا ما نلمسه في خطبة الحجاج التي رثى فيها ابنه وأخاه اللذين توفيا في يوم واحد، وذلك فــي قوله: «**أَيُّهَا النَّاسُ! مُحَمَّدَانِ فِي يَومٍ وَاحِدٍ! أَمَا وَاللهِ! لَقَدْ كُنتُ أُحِبُّ أَنَّهُمَا مَعِي فِي الدُّنيَا مَع مَا أَرجُو لَهُمَا مِن ثَوَابِ اللهِ فِي الآخِرَةِ.**» (١٩)

وهذا النص يكشف لنا مدى الحزن الذي ســيطر على الحجاج؛ فهو منفطر النفس. نلمــس هــذا الانفطار في أسلوب النداء «**أَيُّهَا النَّاسُ!**»، وفي مد الصوت في قوله: «**مُحَمَّدَانِ**»، وهو تعبيــر يحكي مدى تأثره العاطفي بوفاتهما. وعلى الرغم من تجلده أمام خصــومه، وظهــوره بمظهــر

(١٧) **الوَزَر**: بفتح الواو والزاي، الملجــأ والمعتصــم. (ينظر: لسان العرب، ٢٨٣/٥، المادة: و ز ر.)

(١٨) نفح الطيب، ٢٢٥/١-٢٢٦.

(١٩) العقد الفريد، ١١٣/٤.

الصابر الـــمتماسك يعود للانفعال، فتنفطر نفسه حسراتٍ من أَلَمِ الفقد.

ونلمح غلبة البكاء تسيطر عليه في قوله: «**وَايْمُ اللهِ! لَيُوشِكَنَّ البَـــاقِي مِنَّـــا وَمِـــنْكُم أنْ يَفْنَـــى، وَالْجَدِيدُ مِنَّا وَمِنْكُم أنْ يَبْلَى، وَالْحَيُّ مِنَّا وَمِـــنكُم أَنْ يَمُوتَ.!**» (٢٠)

فهذه الألفاظ تحكي اشتعال قلبه على ولده وأخيه، وهي دفقات مشحونة بالحزن. نلمس ذلـــك مـــن خلال القَسَم الذي تتجلى فيه قمة انفعال الخطيب، وتوكيد الفعل باللام والنون في قوله: «**وَايْمُ اللهِ! لَيُوشِكَنَّ**»، وإشباع حروف المد فـــي الأفعـــال: «**يَفْنَى-يَبْلَى-يَمُـــوتُ**»، كل ذلك يكشف لنا عمق عاطفة الخطيب التي حاول جاهداً إخفاءها تجلداً أمام الخصوم والمناوئين.

ومثل هذه النفثات الوجدانية نلحظها في خطبـــة عمر بن عبد العزيز التي رثى فيها ابنـــه عبـــد الملك، حيث قال: «**وَاللهِ، يَا بُنَيَّ! لَقَد كُنتَ بَـــرّاً بِأَبِيكَ، وَاللهِ، مَا زِلتُ مُذْ وَهَبَكَ اللهُ لِي مَسروراً بِكَ...، فَرَحِمَكَ اللهُ! وَغَفَرَ ذَنْبَكَ! وَجَزَاكَ بِأَحسنِ عَمَلِكَ! وَرَحِمَ اللهُ لِكُلِّ شَافِعٍ لَكَ بِخَيرٍ مِن شَاهِدٍ أَو غَائبٍ! رَضِينَا بِقَضَاءِ اللهِ وَسَـــلَّمْنَا لِـــأَمْرِه، وَالْحَمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ.**» (٢١)

فالقسم جاء ليؤكد عمق العاطفة التي يشعر بهـــا في أعماقه، وفي النداء بقوله: «**يَا بُنَيَّ!**» تعبيـــر صادق عن المشاعر الأبوية الدفينة. نلمس فيـــه نبرةَ حزنٍ عميقٍ؛ فهو يناديه كما لو كان حيـــاً. وتأبينه بذكر محاسنه الجميلة، ومآثره الطيبـــة، يعمق عاطفته، ويجعلنا نشعر أن هذا الابن كان يشغل حيزاً كبيراً من حياة والده، ثم نلمس فـــي ختام خطبته عاطفة الرضا بقضاء الله تغمر قلبه، وتشيع فيه قدراً من الطمأنينة والسكينة، وهذا ما اشتهر به عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–.

ومما لا شكَّ فيه أنه من المحـــال «أن يســـتطيع الأديب عرض العواطف القوية أو بعثهـــا فـــي نفوس قُرَّائِه دون أن يُحِسَّها في نفسه قوية. ثـــم يتنفَّس عنها بهذا الأدب القوي التأثير. والشـــاعر لا يبكيك إلا إذا استنفد ماءَ شؤونه، ولا يشـــجيك إلا إذا استطار الهوى بِلُبِّه. والعامل الفذ للظفـــر بالسلطان العاطفي على القراء هو انبعاث الشعر والنثر عن نفسٍ منفعلةٍ صادقةِ الشعور.» (٢٢)

وإيمان الخطيب بدعوته، واقتناعه بصـــدق مـــا يتكلم به له أثر كبير في قوة العاطفة وجعلها حيةً متدفقةً. (٢٣) وكلما قوي إيمان الخطيب، وازدادت قناعته بصدق ما يدعو إليـــه قويـــتْ عاطفتـــه، واكتسبت معانيه حرارةً وقوةً، فإيمانه بقضـــيته

(٢٠) المصدر السابق، ١١٣/٤.

(٢١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز–ابن الجوزي، ٣٠٣.

(٢٢) أصول النقد الأدبي– الشايب، ١٨١.

(٢٣) ينظر: أسس النقد الأدبي–أحمد بدوي، ٦٥١.

«كحبال الجاذبية التي تجتذب إليه الجمهور، وتوثق عرى التأثير بينهما، فأي شكٍّ أو ضعفٍ في إيمانه يقطع تلك الحبال، فينفضُّ الجمهور من حوله.» (٢٤)

وهذا ما نلمسه في خطبهم –خاصة **الدينية**–، فخطب عمر بن عبد العزيز على سبيل المثال صادرة عن نفسٍ مؤمنةٍ يشعُّ بين جنباتها الإيمانُ بالله، والتسليمُ لأمره. وجميع خطبه لها سمة تأثيرية قوية، تستجلب الرقة، وتستدعي البكاء.

ومن أمثلة ذلك قوله: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لاَ تَغُرَّنَّكُم الدُّنيا، وَالْمُهلَةُ فِيهَا؛ فَعَن قَلِيلٍ عَنهَا تُنقَلُونَ، وَإِلَى غَيرِها تَرحَلُونَ، فَاللهَ، اللهَ، عِبَادَ الله! فِي أَنفُسِكُم، فَبَادِروا بِها الفَوتَ قَبلَ حُلُولِ الْمَوتِ، وَلا يَطُل بِكُم الأَمَد؛ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكم، فَتَكُونُوا كَقَومٍ دُعُوا إِلَى حَظِّهِم فَقَصَّرُوا عَنه بَعدَ الْمُهلَةِ، فَنَدِمُوا عَلَى مَا قَصَّرُوا عِندَ الآخِرَة.**» (٢٥) ثم نَحِبَ وهو على المنبر. (٢٦)

وفي آخر خطبةٍ له والتي ودع فيها رعيته لَم يستطع من رقة عاطفته، وغلبة البكاء عليه أن يكملها، فرفع رداءه فبكى، وأبكى الناس من حوله. (٢٧)

وقد نجد بعض الخطباء في لحظات سكينةٍ وصفاءٍ يمتلئ شعورُهم بعمق الإيمان، وصدق اليقين مما يجعل عاطفتهم قويةً ومؤثرةً. وهذا ما نلمسه عند الحجاج، فقد روى قتيبة بن مسلم أن الحجاج خطبهم فذكر القبر، فما زال يقول: «**إِنَّه بَيتُ الوَحْدَةِ، إِنَّه بَيتُ الغُرْبَةِ.**» حَتَّى بَكَى، وَأَبْكَى مَن حَولَه. (٢٨)

ولا شك في أن الخطيب إذا كان مؤمناً بالفكرة التي يدعو إليها، مخلصاً لها «جمعت له الحظوظ من أقطارها، وسيقت إليه القلوب بأزمَّتها، وجمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبَّتِه، وجبلت على تصويب إرادته.» (٢٩)

ولعل في الأمثلة السابقة ما يؤكد أن من مظاهر قوة العاطفة في خطب خلفاء بني أمية وأمرائهم هو تأثر السامعين بها، وتفاعلهم الفكري والنفسي مع مضمونها، وربما بدا التأثر واضحاً على قسمات الوجوه، أو فلتات اللسان، أو اتخاذ موقف معين نتيجةَ وقوع المستمع تحت إيحاء الخطيب وشدة تأثيره.

---

(٢٤) الخطابة، أصولها وتاريخها–أبو زهرة، ٥٥.

(٢٥) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز–ابن الجوزي، ٢٥٣

(٢٦) المصدر السابق، ٢٥٣.

(٢٧) ينظر: البيان والتبيين، ١٢١/٢، وسيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز–ابن الجوزي، ٢٥٩.

(٢٨) البداية والنهاية، ١٢٥/٩، وتهذيب تاريخ دمشق–ابن عساكر، ٥١/٤.

(٢٩) البيان والتبيين، ٨/٢.

ومن أمثلة ذلك أن زياد ابن أبيه لما فرغ من خطبته «**البتراء**» قام إليه عبد الله بن الأهتم، فقال: «أشهد أيها الأمير، لقد أوتيت الحكمةَ وفصلَ الخطاب». (٣٠)

وهذا الانبهار والإعجاب الذي سيطر على نفس ابن الأهتم أثرٌ مُحَسٌّ يدل على نجاح الخطيب في الأخذ بقلوب مستمعيه والتأثير فيهم.

ومثل هذا الأثر نلمسه في خطب الحجاج الذي استطاع أن يؤثر في علية القوم، وأتقياء المجتمع آنذاك فضلاً عن غيرهم.

وأعظم خطبه تأثيراً في النفوس خطبه الدينية التي يشيعُ فيها روح الصدق، وعمق العاطفة. نلمس ذلك من خلال غلبة روح القرآن على خطبه، والتأثر بأساليبه، مما جعل لها دفقات شعورية، وقوة عاطفية تؤثر في السامعين.

وقد يصل تأثر السامعين بكلام الحجاج إلى درجة عميقة تهزُّ النفس، وتصيبها بحالة من القشعريرة والخشوع. وهذا ما استشعره الحَسَن البصري، فقد روى الجاحظ عن أبِي عبد الله الثقفي عن عمه قال: سمعت الحسن البصري يقول: «لقد وقذتني كلمةٌ سمعتها من الحجاج، قلت: وَإِنَّ كلامَ الحجَّاج لَيَقِذُكَ؟ قال: نعم، سمعتُه على هذه الأعواد يقول: «**إنَّ امْرَأً ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِن عُمُرِه فِيْ غَيْرِ مَا خُلِقَ لَه لَخَلِيْقٌ أَنْ تَطُولَ عَلَيه حَسْرَتُه.**» (٣١)

وقد شهد مالك بن دينار بقوة تأثير خطبه الدينية، وسيطرتها على النفوس، وذلك في قوله: «خطبنا الحجاج في يوم جمعةٍ، فقال: «**امرؤٌ زوَّد نَفسَه، امرؤٌ اتَّهم نَفْسَه على نفسه، امرؤٌ اتَّخذ نفسَه عدوَّه، امرؤٌ حَاسَبَ نَفسَه قَبلَ أنْ يكونَ الْحِسابُ إلى غيره، امرؤٌ نَظَرَ إلَى ميزَانِه، امرؤٌ نَظَر إلَى حِسَابه...**» فما زال يقول: امرؤ، حتى أبكاني.(٣٢)

والجانب العاطفي في هذه الخطبة وما سبقها من أمثلة لا يخفى؛ فقد أفضت عاطفة الخطيب إلى بكاء مستمعيه، وذرفهم العبرات، مما يدل على أن عواطفهم بلغت من القوة والتوهج مبلغاً كبيراً، يحس به كل من قرأ هذه الخطب إلى يومنا هذا.

والمتأمل في الأمثلة السابقة يلمس أن العاطفة تتصاعد تدريجياً، تبدأ شيئاً فشيئاً وتستمر حتى تصل إلى ذروتها في النهاية، فيذرف الخطيب العبرات التي تترجم قمة انفعاله العاطفي، وهي القمة ذاتها التي يتركها الخطيب في نفوس مستمعيه، فيتجاوبون معه بنفس طريقته، فالشجى –كما يقال– يبعث الشجى.

(٣٠) المصدر السابق، ٦٥/٢.

(٣١) البيان والتبيين، ١٩٥/٢.

(٣٢) تهذيب تاريخ دمشق–ابن عساكر، ٦٣/٤.

ثالثا: ثبات العاطفة واستمرارها.

قوة العاطفة وصدقها يستلزمان **ثباتها واستمرارها،** [٣٣] وهذا يعني أن تظلَّ عاطفة الخطيب حيةً متدفقةً في جميع خطبته.

والخطيب المتمكن يستطيع أن يحتفظ بوهج العاطفة في خطبته، مما يعني ثباتها واستمرارها. نجد أمثلة ذلك عند معاوية -رضي الله عنه-، وزياد ابن أبيه، وعبد الملك بن مروان، والحجاج، وسليمان بن عبد الملك وغيرهم.

رابعا: التناغم بين اللغة ونوع العاطفة.

ومن خلال التأمل في خطبهم نلحظ أن هناك علاقة كبيرة بين اللغة المستخدمة وعاطفة الخطيب، تتمثل في المواءمة بين الألفاظ ونوع العاطفة، فالألفاظ القوية ذات النبرة الصاخبة، والجرس القوي هي الأنسب للتعبير عن عاطفة الغضب، والهجاء، والتهديد، والوعيد، بينما الألفاظ الرقيقة والسلسة ذات النبرة الهادئة هي الأنسب للتعبير عن مشاعر الحب، والرضا، والحزن، والأسى، ونحو ذلك.

وخير ما يمثل تصوير اللغة للانفعال، وتوافقها مع العاطفة الوجدانية خطبة عبد الملك ابن مروان بعد مقتل عمرو بن سعيد الأشدق، حيث يقول: «**ارمُوا بِأَبصَارِكُم نَحوَ أَهلِ الْمَعصِيَةِ، وَاجْعَلُوا سَلَفَكُم لِمَن غَبَرَ مِنْكُم عِظَةً، وَلاَ تَكُونُوا أَغفَالاً مِن حُسنِ الاعْتِبَارِ، فَتَنْزِلَ بِكُم جَائِحَةُ السَّطوَاتِ، وَتَجُوسَ خِلاَلَكُم بَوَادِرُ النِّقْمَاتِ، وَتَطَأَ رِقَابَكُم بِثِقلِهَا العُقُوبَةُ، فَتَجْعَلَكُم همداً رُفَاتاً، وَتَشْتَمِلَ عَلَيكُم بُطُونُ الأَرضِ أَمْوَاتاً. فَإِيَّايَ مِن قَولِ قَائِلٍ، وَرَشْقَةِ جَاهِلٍ، فَإِنَّما بَيْنِي وَبَينَكُم أَنْ أَسْمَعَ النَّغْوَةَ فَأُصَمِّمَ تَصْمِيمَ الْحُسَامِ الْمَطْرُورِ، وَأَصُولَ صِيَالَ الْحَنِقِ الْمَوتُورِ، وَإِنَّمَا هِيَ الْمُصَافَحَةُ وَالْمُكَافَحَةُ بِظُبَاتِ السُّيُوفِ، وَأَسِنَّةِ الرِّمَاحِ، وَالْمُعَاوَدَةُ لَكُم بِسُوءِ الصَّبَاحِ.**» [٣٤]

فألفاظ الخطيب «**ارموا-جائحة-تجوس-النقمات-تطأ-همدا-رفاتا-المصافحة-المكافحة-المعاودة...الخ**» جميعها تمتلئ بالشدة والقسوة، وترسم للخصوم والمناوئين خيوط الفاجعة التي ستحل بهم إن أعلنوا العصيان والخروج عليه. وهذه الألفاظ بما تحمل من إيحاءات وظلال تتناسب وعاطفةَ الخطيب الثائرة.

وفي المقابل تأمل قوله في إحدى خطبه: «**اللَّهُمَّ إِنَّ ذُنُوبِي قَد عَظُمَتْ، وَجَلَّتْ أَنْ تُحْصَى، وَهِيَ صَغِيرَةٌ فِي جَنبِ عَفْوِكَ، فَاعْفُ عَنِّي.**» [٣٥]

حيث نلمس في مناجاته الاعتراف بالذنب، والالتجاء إلى الله بقلب مخلص ومشفق. وقد عبر

(٣٣) أصول النقد الأدبي-الشايب، ١٩٧.

(٣٤) صبح الأعشى، ٢٦١/١-٢٦٢.

(٣٥) العقد الفريد، ٨٣/٤.

عن هذه العواطف بلغة تناسبها، وألفاظ تتـواءم معها، مما يؤكد «أن الأسـلوب نفسـه يختلـف باختلاف معناه الوجداني، فالعبارة التي تصـور الغضب أو السخط أقوى من تلك التي تعبر عن الحزن أو الخوف أو الوله». (٣٦)

وفي خطبهم نلمس تنوعـاً عاطفيـاً واضـحاً، فالعاطفة دائماً ما ترتبط بالحدث الذي يثيرهـا، والموقف الذي يبعثها؛ لذلك تتعدد وتتنوع تبعـاً للمواقف والأحداث، ففي خطب الفخـر تسـود عاطفة التعالي والعجب، وفي الرثـاء عاطفـة الحزن والأسى، وفي الهجاء عاطفـة الكراهيـة والبغض، وفي الوعيد والتهديد تسـود عاطفـة الغضب وحب السيطرة، وفي النصح والتوجيـه عاطفة الإشفاق والحدب.

والمتأمل في الدراسة الموضوعية يدرك كثـرة المثيرات التي أمدَّت خطباء البيت الأموي بميدان فسيح مملوء بالأفكار والمعاني التي تندفع إثـر الانفعال بالأحداث، فتملي عليهم خطبـاً تفـيض بعمق العاطفة والشعور.

ويغلب على عواطفهم اتسامها بالسمو والرفعـة، نلمس مثل هذا السمو في خطبهم الدينية حيـث تسود العواطف الإيمانية المتدفقة التي تنبع مـن الإيمان بالله، والتوكل عليـه، والخـوف منـه، وتسليم الأمور إليه.

كما نلمس العواطف الإنسانية التي تتسم بالشعور الإيجابي من جراء شـعور الخطيـب بالأمانـة والمسؤولية تجاه رعيته، وتَأثُّرِه لحـال الفقـراء والمعوزين، وأصحاب الحاجات.

وفـي ميادين البطولة نلمس عواطف الاعتـزاز بالنفس، والتغني بالأخلاق النبيلة مـن شـجاعة وفروسية. وكلها عواطف سامية، وقـيم نبيلـة ترتقي بالمتلقي إلى المستوى الذي يعلو به إلـى قمة السمو النفسي والروحي.

وفي الوقت الذي تنبل فيه عواطف خطباء البيت الأموي نجد بعض العواطف التي تتسم بالـدُّنُوِّ وَالضَّعَةِ.

ومن تلك عواطف الحقد والتشفي، وإظهار الكره للآخرين، والتكبر علـيهم. نلمـس مثـل هـذه العواطف في بعض خـطب الحجاج بن يوسف، (٣٧) وقتيـبة بن مسلم،(٣٨) وعبيد الله بن زياد.(٣٩)

وقد تخلو بعض خطبهم من العاطفـة، وتظهـر مصحوبةً بالبرود أو جفاف الوجدان، وهذا قليلٌ جداً في خطابة البيت الأموي. نلمس مثل هذا في خطبهم التي قيلت مجاملةً في تأييد البيعة ليزيـد

(٣٦) الأسلوب–أحمد الشـايب، ٧٥، مكتبـة النهضـة المصرية، الطبعة الثامنة، عام ١٩٩٠م.

(٣٧) ينظر: العقد الفريد، ١٠٨/٤.

(٣٨) ينظر: تاريخ الأمم والملوك، ٥١٠/٦.

(٣٩) ينظر: المصدر السابق، ٣٥٠/٤.

بن معاوية حيث يظهر فيها ضعف الاقتناع، وعدم إحساس الخطيب بموضوعه إحساساً يتناسب ودرجةَ الصدق والإيمان بما يدعو إليه، كما في خطبة عمرو بن سعيد الأشدق التي يمدح فيها يزيد بن معاوية. (٤٠) أو تلك التي فيها تزلُّفٌ وَتَمَلُّقٌ، كخطبة خالد القسري بين يدي عمر بن عبد العزيز. (٤١)

ومثل هذه الخطب التي تفتقد العاطفة، ويعوزها الصدق، لا تنبهر بها النفس، ولا تهتزُّ لها المشاعر، وتهبط من «مستوى التراث الأدبي إلى مستوى الوثائق التاريخية التي لا يرجع إليها إلا المؤرخون في استجلاء حقائق الماضي.» (٤٢)

المصادر والمراجع

١) أدب الخلفاء الراشدين- جابر قميحة، دار الكتب الإسلامية.

٢) أسس الصحة النفسية - عبد العزيز القوصي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة، عام ١٩٦٩م.

٣) الأسس النفسية للأساليب البلاغية العربية - مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للنشر، الطبعة الأولى، بيروت، عام ١٩٨٤م.

٤) أسس النقد الأدبي عند العرب-أحمد بدوي، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، عام ١٩٩٦م.

٥) الأسلوب - أحمد الشايب، مكتبة النهضة، القاهرة، الطبعة الثامنة، عام ١٩٩٠م.

٦) أصول النقد الأدبي-أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة، عام ١٩٩٩م.

٧) البداية والنهاية - ابن كثير، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى عام ١٩٩٢م.

٨) تاريخ الأمم والملوك - ابن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، روائع التراث، بيروت، عام ١٣٨٤هـ.

٩) تهذيب تاريخ دمشق - ابن عساكر، هذَّبه عبد القادر بدران، الطبعة الثانية، دار المسيرة، بيروت، عام ١٣٩٩هـ.

١٠) الخطابة أصولها وتاريخها - محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، عام ١٩٣٤م.

١١) الخطابة العربية في عصرها الذهبي - إحسان النص، دار المعارف مصر، عام ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م.

١٢) دراسات في النقد الأدبي - محمد عبد المنعم خفاجي. (دون بيانات)

(٤٠) ينظر: عيون الأخبار، ١/١٣٥.

(٤١) ينظر: المصدر السابق، ١/١٣٣.

(٤٢) الأدب وفنونه-محمد مندور، ١٥٧، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، عام ١٩٩٦م.

١٣) سيرة عمر بن عبد العزيز – ابن الجوزي، ضبط وشرح نعيم زرزور، دار الكتب العلمية،بيروت، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

١٤) سيرة عمر بن عبد العزيز – ابن عبد الحكم، تحقيق أحمد عبيد، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، عام ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م.

١٥) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء- أحمد بن علي القلقشندي، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

١٦) فن الخطابة-أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للطباعة والتوزيع، القاهرة، عام ١٩٩٦م.

١٧) فنُّ الخطابة في المنظور النقدي – عبد اللطيف الحديدي، دار المعرفة للطباعة، المنصورة، الطبعة الأولى، عام: ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٨) فن الخطابة وتطوره عند العرب – إيليا الحاوي، دار الثقافة، بيروت.

١٩) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – المقري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي.